لفظا المحبة والمودّة في القرآن الكريم دراسة دلاليّة

م.م مناهل جبار ازعيبل
م.م هند كامل خضير
جامعة ذي قار / كلية التربية للبنات

ملخص البحث

تضمن هذا البحث بيان دلالة لفظ (المحبّة , والمودّة) في النص القرآني حيث وَسّع القرآن الكريم من دلالات كلتا المفردتين بصيغ متعددة باشتقاقاتها ، وقد حاول البحث استقصاء (المحبّة المودّة) في القرآن وقد بلغت ألفاظ (المودّة) فيه سبعةً مواضع , في حين جاء لفظ (المحبّة) في موضع واحد, واخترت تعبير (المودّة) إلى جانب تعبير (المحبّة) دون غيرها من الألفاظ كالقربى أو الزلفى ؛ لما في لفظ المودة من التقاء القرب أو البعد بحسب طبيعة اللفظة ودلالاتها , ولما في لفظ (المودّة) من الممارسة الفعلية للحبّ الذي هو ضالة المحبّ , وقد عرج البحث في بداية كلّ لفظة على تعريفها لغوياً مشيراً إلى بيان خصوصية الجذر اللّغوي لـــ (أحبّ) في أداء معناه الخاص إلى معنى الودّ , كما أهتم البحث ببيان ماهية السياق ومدى تأثره في تغير دلالة اللفظ القرآني ذلك أنّ معنى الكلمة يرتبط ارتباطاً بالسياق الذي يرد فيه .

Summary

This research includes explaining the meaning of the words in Qura'nic text where Qura'n expands the meanings of both two words in different forms by derivation. The research tries detecting these words in Qura'n. The word occurred seven times while the word occurred only once. The researcher chose the word side by side to the word and not the other words like and since has the approaching of the nearness or farness according to the nature of the word and its meanings. Adding to that, has the meaning of the actual practice of love which is the quest of the lover. The research starts defining every word a linguistic definition pointing to the peculiarityof the root in performing its special meaning to the meaning of The research focuses on indicating the nature of context. And its effect in changing the meaning of Qura'nic word since the meaning of the word relates to the context where that words occurred in.

المحبّة والمودّة في اللغة والاصطلاح

لا خلاف بين أهل العلم في أنّ التحدي الذي جاء به الكتاب العزيز كان على وجه الإعجاز لا سيّما البياني منه, من حيث إنّ قضية الإعجاز فرضت وجودها على العرب , منذ تلاوة المصطفى الحبيب في قومه من كلمات ربه, وإدراك طوائف قريش ما لهذا البيان القرآني من إعجاز[1], وأنَّ القرآن ((إنَّما صار معجزاً لأنَّه جاء بأفصح الألفاظ , في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني))[2] ,وهنا جاءت إقامة الحجّة على ذلك بتأكيد قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3] , فقد أُدرك سرّ إعجاز القرآن الكريم عن طريق القدرة الفائقة في نظم جزئيات الأداء في اللفظ والتركيب والصورة , فـــ((إنّ قال قائل : بينوا لنا ما الذي وقع التحدي فيه, أهو الحروف المنظومة؟ أو الكلام القائم بالذات؟ أو غير ذلك؟ قيل: الذي تحدّاهم به: أنّ يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن , منظومة كنظمها, متتابعة كتتابعها, مطّردة كاطّرادها؛ لأنَّ الإعجاز واقع في نظم الحروف التي هي دلالات وعبارات عن كلامه, وإلى مثل هذا النظم وقع التحدي))[4]

وعند الوقوف أمام الاستعمال القرآني وتعبيراته الكريمة من حيث أنّه متعدد المعاني ,وهذا ما أبهر العالمين به, فهو((تعبير فريد في علوّه وسموّه وإنّه أعلى كلام وأرفعه فلا يستطاع مداناته والإتيان بمثله))[5] ,تأتي أمامنا مقولة أبي هلال العسكري (ت 395 هـــ) "إنّ أولى العلوم بالتعلمُ بعد معرفة الله علم البلاغة ومعرفة الفصاحة"[6] , وبما إنّ معرفة إعجاز القرآن الكريم يتوقف على معرفة علم البلاغة ؛ولأنّ التفضيل بين كلام وكلام وبين قصيدة وقصيدة يتوقف على معرفة علم البلاغة ,لا سيما من ارتباطها بالثنائية القائمة بين :(المقام , والمقال) وهذا يُسهم في إيجاد فواتح فضاءات في المثاقفة لقراءة النصّ الكريم وفي ظلال تلك الاستعمالات القرآنيّة يكون لمكوّن الكلمة عبر التواصلية المنشودة من أيقونة (التأثير × التأثر) نصيب من الحضور والاهتمام, وبهذا فالكلمة في جملة القرآن ((بمنزلة الفريدة من حَبِّ العِقْد فلا يقع ملها لمخلوق ... وفصيحة مستعملة في كل أحوالها)) [7] .

استرفد البحث اللغويّ بشأن لفظة "المحبّة " رؤى متعددة سواء على صعيد الطرح الماديّ أو المعنويّ, أو على مستوى مثاقفتها عند استعمالها في المدوّنة المقدّسة (القرآن الكريم) , ويمكن رصد بعض السمات اللغويّة بوساطة الوقوف عند معجمات التراث اللغويّ .

وكان الأصل للفظة محل خلاف أهل اللغة , إذ تدور مادة (ح ب ب) التي يرجع إليها لفظ المحبّة في المعاجم اللغويّة حول عدة معان يرجعها ابن فارس(ت395هـــ) إلى أصول ثلاثة تدل أوّلها :على اللزوم والثبات , والثانية : إلى الحَبّة من الشيء ذي الحَبّ , والثالثة في وصف القِصَر[8] , فما كان من أصل اللزوم فهو الحُبّ والمحَبّة واشتقاقه من أَحَبّه إذا لزمه ؛ لأنّ من أحبّ شيئاً لزمه وإن فارقه فبقلبه،[9]والحبّ ((الوداد ، كالحباب والحِب))[10] ,ويستدرك الأصفهاني(ت502 هـ) منزلة لفظ "أحبّ \ المحبّة" عند أصوله المتجذرة في مخاطبة الأنساق المتداولة التي تُعارف عليها في وضع (محبوب) موضع (مُحَبّ) , إذ أعطى للمحبّة مخرجاً إرادياً بثلاثة أوجه هي :

- محبَّةٍ للَّذةِ كمحبّة الرجل المرأة .
- محبَّة للنفع كمحبَّة شيءٍ يُنتفع به.
- محبَّة للفضل , كمحبّة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم[11] .

وقالوا إنّ الحبّ هو : ((الإناء الذي يحمل فيه الماء , كالجابية وشبهها , واشتقت منه المحبة , لأنّه إذا امتلأ بالماء لم يسع فيه يره , وكذلك القلب إذا أمتلأ بالمحبّة لم يسع فيه غير محبوبه))[12] , وقال

آخرون المحبّة مشتقّة من مقول أحبّ البعير إذا برك فلم يقدر على القيام ,وبهذا لا يبرح المحبّ بقلبه عن ذكر المحبوب بعد الوقوع فيه[13] ,وحكى بعضهم أنّه مشتقّ من حبّة القلب بوصفه محلاً لنشوء الحبّ فأخذ الاسم من محل التكوين وهو سويداء القلب[14] ,وقيل: مشتقة من القرط , وقيل من حباب الماء من مشاكلة معظم الماء, لأنّ المحبّة هي معظم ما في القلب[15] , ولما يستلزم قلب المحبّ من الصفاء والالاء رد ذلك القول في اشتقاق المحبّة من حب الأسنان المنّضدة وهو البياض[16] .

ومما لا شك فيه أن الحُبَّ بمعناه الشائع هو معنى قلبي يطلق - نقيضاً للبغض – على كلّ مرغوب للنفس والعقل ، وفعله هو : ((حبّ يحبّ حبّاً))[17] ,وهنا يرى ابن منظور تأكيداً لهذه المعاني اللغوية, أنَّ هو الحُبُّ : الوِدَادُ والمَحَبَّةُ , وكذا يعني الحب بالكسر , من هنا فالمَحَبَّةُ اسم لِلْحُبِّ [18] .

ومن الملاحظ في تصريفات الجذر -(حَبّ) ، أنّ الأصل فيه شيء ، والمستعمل شيء آخر ، فاسم المفعول منه قياساً : محَبّ ، والمستعمل على غير القياس هو (محبوب) ، يقال : أحبه الله فهو محبّ ، ومحبوب[19] . وكذا حببته أحبه ، والقياس (أحبه) بالضم فأحببت الشيء بالألف فهو محب ... وحببته أحبه من باب ضرب والقياس أحبه بالضم لكنه غير مستعمل وحببته أحبّه من باب تعب لغة , وفيه لغة هذيل حابيته حبابا من باب قاتل والحُبّ اسم منه فهو محبوب [20] , ويعني عند العسكري في مباحث فروقه اللغويّة , إنّ المحبّة ميل لطباع ما يتبعه إرادة , إذ يقال : أَحْبَبْتُ زيداً أيّ أنك تحبّ إكرامه ونفعه , وأحبُّ الله أيّ أحبُّ طاعته [21] ؛بكون ماهية الدلالية لفظ المحبّة لجريانه على الشيء المحب عند الإنسان لا يجتمع مع كرهه له ؛ لذا جاء في أثر الأخبار أنّ المحبّة تكون ثواباً وولاية [22] .

وهناك من أوّل قوله و(أحبُّ الله) أي أحبُّ طاعته , بأن محبّة الله لعباده بإحسانه إليهم ، وعفوه عنهم ، وإنعامه عليهم ، ومحبّة العباد له - تعالى- بمحبّة طاعته ورضوانه[23] ، والصواب في ذلك ((أنّ هذا التأويل يؤدي إلى إنكار المحبّة ، ومتى بطلت مسألة المحبّة ، بطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان))[24].

ولا يخفى أيضاً وقوف الفلاسفة في توضيح الدلالة المقصودة من لفظ " الحبّ " فهو ((ميْلٌ إلى الأشخاص العزيزة أو الجذّابة أو النافعة))[25], إذ تقع هذه اللفظة في موقع متميز في المناهج النفسية ولدى الفلاسفة, ولننظر في توجيه افلاطون لمفهوم "الحبّ" بأنّه باث عاطفي لتوطيد العلاقات بين المخلوقات على محمل الإرادة الثابتة ومحمل الجذب[26] , ويقابله بالجانب الآخر النظرة السقراطية لمفردة الحبّ التي ردّها لمحمل الترويض للنفس والرياضات الروحية إذ يقول إن ((المحبة أفضل رياضات النفس , وفيها جلاء العقول وصقل الأذهان))[27] .

ونستشف مما سبق أن معظم هذه القراءات اللغويّة والفلسفية والاجتماعية لمفردة الحبّ, ترى أنّها المحبّة كناية عن الإرادة , بل هي محض للودّ, بكون جلّ المعطيات المرجعيّة للنصوص الدينيّة – القرآن الكريم تحملها نصوص لغويّة, ولابدّ من ((الاطلاع على تأليفها وتراكيبها ومعاني مفرداتها , وكلّها تحتاج إلى معرفة لغويّة ومعرفة في حدود زمنية معينة هي التي نزلت فيها))[28] ,فلم تزج طبيعة ورودها اعتباطاً , فقد نزل القرآن الكريم من المتلقي منزلة حضورية فاعلة , فكثيرة هي المعطيات الربانيّة التي تتعاطها نصوص التعبير القرآنيّ من مبدأ التعارف والتواصل نحو قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[29] , ووصلاً لموردي المحبّة والمودّة وسنقف عند هذه الموارد لاحقاً, فمن هنا أنّ معطى المحبّة يعدّ معطى إلهياً , وهبة رحمانيّة خص بها الباري عزّ وجّل جلّ مخلوقاته , إذ لم تقم للوجود قائمة إلاّ بالمحبّة , فبها ((انشقت السماء وانفطرت وبها زلزلت الأرض والجبال ودكت ,

واستنارت الشمس وكورت, وبها النفوس زوجت , وبها الجحيم سعرت , وبها الجنة أزلفت ...)) [30]

.

وكثيرة هي التعريفات التي عرفت مفهوم (الحبّ \المحبّة) ومنها ما قيل في تعريفها ، هو قول الفيروزآبادي : "ولا تحد المحبّة بحد أوضح منها ، والحدود لا تزيدها إلاّ خفاء وجفاء ، فحدها وجودها ، ولا توصف المحبّة بوصف أظهر من المحبّة ، وإنما يتكلم الناس في أسبابها ,وموجباتها, وعلاماتها ,وشواهدها , وثمراتها, وأحكامها))[31] .

وفي القرآن الكريم ورد مفهوم (أحبّ) بدلالتين :

الأولى: للدلالة على الزيادة الحقيقية التي تقتضي مشاركة المتفاضلين في أصل الوصف (المحبّة) ، وزيادة أحد المتفاضلين فيها على الآخر ، وذلك بين متناظرين في التفاضل ، نحو قوله تعالى- : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا﴾ , قد لزم الإفراد والتذكير مع أنّه أسند إلى مثنى. وعُدّي بحرف الجر (إلى) ؛ لأنّ اسم التفضيل إذا كان من مصدر فعل متعد بنفسه ، دال على الحبّ أو البغض أو بمعناهما ، فإنه يعدى إلى الفاعل معنى بـ (إلى) نحو : يوسف أحبّ إلى أبيه من غيره ، ويعدى إلى المفعول معنى بـ (اللام) ، نحو : يوسف أحب لأبيه من غيره[32] .

في حين تأتي الدلالة الثانية : للمشاركة التقديرية ، التي لا تصح إلاّ بتأويل أحبّ وذلك في المفاضلة بين البغيضين ، نحو قوله عزّ وجلّ - : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إليه وإلاّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إليهنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾. فالبغيضين هما السجن والمعصية فقوله : (السِّجْنُ أَحَبُّ) قيل :هو على حذف مضاف ، أي : نزول السجن ، أو الحبس فيه ، والعرب تضع الأماكن المشتقة من الأفعال مواضع الأفعال ، فتقول : طلعت الشمس مطلعا[33] , وتأويل دلالة أحبّ في الآية : دعا يوسف ربه متضرعاً إليه مفضلاً الحبس في السجن ، على أنْ يفعل ما يدعونه إليه من الفاحشة والمعصية ، فليس في أحدهما استحباب حقيقة ، ولا اشتراك في أصل الوصف

وقد وردت مفردة الحبّ ومشتقاتها في النصوص القرآنيّة المقدّسة في (76) موضعاً على اختلاف صيغها[34], لكنها وردت بلفظ (المحبّة) الصريح في موضع واحد فقط بقوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه آية :39] .

(المحبّة)هنا جاءت بدلالة أنّ الصفة التي يقوم عليها التفضيل تقتضي الزيادة الحقيقة في مشاركة المتفاضلين في أصل الوصف (المحبّة) .

واختلف في معنى (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي) : فذهب قسم من المفسرين إلى أنّ المقصود بذلك أنّه من جملة المنّ التي منّاها الله تعالى لموسى (عليه السلام) هو ذلك الدرع الحصين التي تمثّل بإلقاء قبس من محبّة عليه ، قال الزمخشري : ((أي محبّة حاصلة واقعة مني, قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها؛ فلذلك أحبّك فرعون وكلّ من أبصرك))[35] وعقب بعضهم على ذلك قائلاً:((تلك محبّة آسية وفرعون , كان فرعون قد أحبّه حبّاً شديداً حتى لا يتمالك أن يصبر عنه))[36] ، وينقل الطبرسي(ت: 548هـ) ، قول بعضهم : أنّ المحبّة هي مسحة الجمال التي ألبساها الله لموسى وألقاها عليه[37] , ومن المفسرين من يرى أنّ المراد بـ (محبّة) القبول ، إذ قال ابن عطيه ذلك أقوى الأقوال[38].

ثم تبنّى المحدثون من المفسرين هذا التفسير وزادوه بياناً وتوضيحاً ، فهذا السيد الشيرازي يقول : ((لما كان موسى (عليه السلام) يجب أن يُحفظ في حصن آمن في هذا الطريق المليء بالمخاطر , فقد ألقى الله قبساً من محبّة عليه إلى الحد الذي لا ينظر إليه أحد إلاّ وعشقه))[39]، وركز

ابن عاشور في تفسير الآية على الخصائص القلبية في وصف المحبّة ،أيّ أنّها خلقت في القلب من غير سبب اعتباري فقال : ((ووصفت بأنّها من الله للدلالة على أنها محبة خارقة للعادة لعدم ابتداء أسباب المحبّة العرفيّة من الإلف والانتفاع ,ألا ترى قول امرأة العزيز ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [40] مع قولها ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾[41] , فكان قرة عين لها قبل أن ينفعها وقبل أن اتخاذه ولدا))[42].

وتأتي بالجانب الآخر لفظة " المودّة " لتشاكل " المحبّة " في معنى الوداد , وهنا يعطي أبو هلال العسكري (ت: 395 هـ) ذلك الفرق بين " الحُبِّ , والوُدِّ " بقوله أن ((الحُبَّ يكون فيما يوجبه مَيْل الطِّباع والحكمة جميعاً , والودّ من جهة ميْل الطباع فقط , ألا ترى أنك تقول : " أحُبَّ فلاناً وأودُّه" وتقول : " أحبُّ الصلاة " ولا تقول " أودُّ الصلاة " وتقول : " أودُّ أن ذاك كان لي " إذا تمنَّيْت وِدادَه وأودُّ الوجل ودًّا ومودة والود والوديد مثل الحِبِّ وهو الحبيب))[43] .

وقال ابن فارس "الود" : الواو والدال أصلان , وهما كلمة تدلُّ على مَحَبَّةٍ , ودِدتهُ أحببته[44] , ودِدته أوّدّه من ((من باب تعب وَدّا بفتح الواو وضمها أحببته والاسم المَوَدّة))[45] , إذ يتجلى في المضمون الدلالي للفظة " المودّة" تمثلان , تمثّل المحبّة , وتمثّل مناط بالتمني , وهذا ما قاله الراغب الوّدُّ : ((مَحَبَّةُ الشيءِ , وتَمَنِّي كونه , ويُستعمل في كلّ واحدٍ من المعنيين على التمني يتضمّن معنى الوُدِّ ؛لأنّ التمني هو تَشَهِّي حصول ما تَوَدُّهُ))[46] وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[47] فحمل المودّة هنا , هو الألفة بين العباد - الزوجين , وقد قال بعضهم مَوَدّة الله لعباده هي مُراعاتُهُ لهم [48] , من هنا فالمودّة مصدر الحبّ, فـــ ((الوُدّ الحُبُّ يكون في جميع مداخل الخير))[49] وللمودّة مقامات استنبطت من رحابة اللغة اجتذبت أكثر من معنى منها : الوِدُّ , المحبّ والكثير الحبَّ , كما حدّت المودّة : إلى معنى الكتاب أو الكتب وبه فسّر ما جاء بالتنزيل[50] : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[51], و" وُدُّ " صنمُ عبده العرب الجاهليون [52] .

وبهذهِ الرؤى المستقاة من أهل اللغة يعد صنوا المحبّة والمودّة شرطاً في بلوغ تمام دلالة الحبّ , فأحدهما يعطي دلالة الآخر , فالحبّ هو الودّ , والودّ هو الحبّ , إذ يجمع بينهما قاسم الخصوصية المشتركة, فالمودّة الممارسة الفعلية لمناط المحبّة, بما((يجعل من الودّ خالص الحبّ , وألطفه وأرقه , فهو من الحبّ بمنزلة الرأفة من الرحمة))[53] .

وإذا اتجّهنا إلى مقام خاصيّة الاستعمال القرآنيّ للفظتي (المحبّة, والمودّة) , نجد أنفسنا أمام نسق خاص من اللغة من حيث تراكيبها , وأنساقها , ودالتها التعبيريّة ؛ بوصف النصّ الكريم نصّاً مفتوحاً لمتلقيه بمرور أجياله المتعاقبة يتناوله بدوال مرجعيات ثقافية يتعايشها في عصره .

لفظ المودّة في القرآن الكريم

ومقامات لفظ المودّة الصريح في السياقات الخطابيّة جاء على وفق الآتي :

ت	مورد اللفظ في القرآن الكريم	اسم السورة	رقم الآية
1	قوله تعالى:﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾.	النساء	73
2	قوله تعالى:﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ .	المائدة	82
3	قوله تعالى:﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.	العنكبوت	25
4	قوله تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾.	الروم	21
5	قوله تعالى:﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾. قوله تعالى:﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾.	الممتحنة	1
6	قوله تعالى:﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾.	الممتحنة	7
7	قوله تعالى:﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾.	الشورى	23

بما أنّ النّص بشكله العام بنية معرفيّة ذات أبعاد متعددة فبه بحاجة إلى نسق متكامل من الأنساق لعلمي النحو والدلالة , وهنا يمكن القول عموماً أنّ الجانب الدلاليّ يضمّ أثر المتلقي , والموقف , والهدف الرئيس للنص , وموقف الحال .

بما أنّ لفظ(المودّة) في التناول القرآني في حيثيات البحث أكثر مورداً من لفظ (المحبّة) سنبحث عن دالتها في الخطاب القرآني وانعكاسات مفهوم الودّ المستجد للاستعمال التعبيريّ على مقام الحال , ومن موارد مفهوم المودّة في التعبير القرآني :

(1) سورة النساء : آية : 73

قوله تعالى:﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾.

تخاطب الآية المؤمنين وفي الوقت نفسه تتطرق للمنافقين ؛ بوصفهم جزءٍ من المؤمنين وما إلى ذلك لأنّ المنافقين كانوا متغلغلين بين المؤمنين , ومن ثم فهم يحسبون على الظاهر جزءاً منهم [54] , فالآية المودّة اعتراض بين القول ومقوله تأكيد لذم حال المنافقين قبال حال المجاهدين في وقت المصيبة , فدالة الآية تشير إلى المفهوم المادي للنصر [55] .

وفسّرت (المودّة) هنا بالصحبة والمحبّة , فكان اطلاق المودّة على وجهين : إما على سبيل الاستعارة الصوريّة إنّ كان المراد هو المنافقين , وإما على وجه الحقيقة إنّ أريد بها ضعف

المؤمنين[56] ,وقيل بمعنى الود على من قرأ (لَمْ تَكُنْ) بالياء , وباعتبار اللفظ بالتاء عند ابن كثير وحفص[57] , وقيل يراد بها المخالطة بوصف المراد من تمام الكلام في دوال المودّة هو التعجب من حال كلتا الحالين المنافق والمؤمن من المخالطة بينهما[58] , ومن سورة النساء ننتقل إلى سورة المائدة لنقف على معنى دلالة المودّة فيها.

(2) سورة المائدة : 82

قال تعالى:﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾.

وقبل الحديث عن دلالة الآية ، لابدّ أولاً من تعيين الأطراف المشتركة في رسم صورة (المودّة) ، فينبغي معرفة المخاطبين بلام (للذين)، والمشار إليه بـــ (أمنوا) لكونه مفضلاً عليه بعد ضمير المتكلم ، والمراد بعودة الموصول ثانيةً (لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ) لكونه مفضلاً ، فقد ذهب القرطبي (ت: 681 هـــ) إلى أنّ المخاطبين هم النجاشي وأصحابه[59] .

وعقب على ذلك أبو حيان الأندلسي قائلاً : الظاهر((لم يصفهم بالوّد وإنما جعلهم الأقرب من اليهود والمشركين)) [60] .إلاّ أنّ أبا بكر الرازي استقبح إحالة المفسرين لأفضلية النصارى على اليهود قائلاً :((من الجهال أن يظن أن هذه الآية مدحاً للنصارى وإخباراً بأنهم خير من اليهود , وليس كذلك ؛ لأن ما في الآية من ذلك إنّما هو ص[illegible] أمنوا بالله ورسوله(ص)))[61] .

وأما الطباطبائي يعد الخطاب [illegible] 4 عامة(اليهود , والنصارى) ثم قيس لكلّ ما يختص به كلّ من الطائفتين[62] ؛ ليتم الكلام في ((أنّ النصارى أقرب تلك الأمم مودّة للمسلمين واسمع لدعوتهم))[63], كما ينحو مثل هذا التفسير ناصر مكارم الشيرازي أنّ الآية تضع حداً كمقارنة بين اليهود والنصارى الذين عاصروا الرسول(صلى الله عليه وآله) إلاّ أنّ القرآن يعزو سلوك كلّ من الطرفين بنقطة المناقضة من أنّ النصارى على الرغم من كلّ انحرافاتهم لكنّهم أعلى مستوى من اليهود و" رهباناً" [64]،

إنّ دلالة مقام (المودّة) هنا, مقام نعت يتسم بالخصوصية وهو يعطي وصفاً قريباً , ويقابلها في ذلك العداوة مع التفاوت بينهما من حيث الشدّة في العداوة والقرب في المودة على أنّ ((عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين أشدّ العداوات وأظهرها, وأنّ مودّة النصارى التي اختصت المؤمنين أقرب المودّات , وأدناها وجوداً, وأسلها حصولاً))[65]

(3) سورة العنكبوت , آية : 25.

قوله تعالى:﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

لعلّ انصراف الجانب النحويّ بتعدد الأوجه الإعرابية هنا ما بين النصب والرفع يجعل من نسق المعنى في مقام الدلالة ينبني على مقتضى مضمونها , فوجه النصب حامل للتعليل , أيّ ((لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا , لاجتماعكم على عبادتهم واتفاقكم عليها وائتلافكم , كما تتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب نجاتهم وتصادقهم))[66] , أو حامل للمفعوليّة على محذوف مقدّر بالإضافة ؛ من حيث إنّ فعل الاتّخاذ سبب للمودّة بينكم[67] ,ولها وجه بالرفع على محمل الخبرية , بمعنى أنّ الأوثان مودّة بينكم أيّ مودودة [68] .

كما أنّ فعل سيرورة المودّة قائم على المجاورة الفعليّة بـــ(اتَّخَذْتُمْ), , وفعليّة الاتّخاذ هنا مراد بها الاستمرار والبقاء على عبادة الأوثان مع بطلان حجيتها واستحقاقها للعبودية[69],وجيء هنا بدوال التجديد والاستمرارية ؛لإعطاء((هيأة الفعل واستحضار صورته, ليكون السامع كأن يعاينها

ويشاهدها))[70] ,وإذ تفحصنا حمولة الحصر الدلاليّة وجدناها تدّل على مناط ذلك المحط, فوجه القصر أنّه ((لم يبق لهم شبهة في عبادة الأوثان بعد مشاهدة دلالة صدق الرسول الذي جاء بأبطالها فتمحض أنْ يكون سبب بقائهم على عبادة الأوثان هو مودّة بعضهم بعضاً الداعية لإبانة المخالفة))[71] مراد المودّة هنا المحبّة والإلفة, فمحبّة هؤلاء القوم بعضهم لبعض لا تنفي مودّتهم للأوثان , وإنّ لاح إليهم أنّهم على ضلال[72] وبإدراك لمقام الحال بخصوصية أدقّ ما ذكره صاحبا الميزان , والأمثل , تلك المودّة والمحبّة تحمل بُعداً قومياً أشبه ما يكون برمزٍ للوحدة أو الآصرة بين الفرد وقبيلته أو قومة ,لأنّ((كلّ جماعة اختارت لنفسها وثناً , كما ذكروا في شأن أصنام الجاهلية , إذ كان كل صنم يعود لقبيلة من القبائل العربية , فصنم العزّى كان لقريش , واللّات كان خاصاً بثقيف , وأمّا منات فكان خاصاً بالأوس والخزرج))[73] وأنّ القبيلة تمثّل((نسقاً فكريا يؤكد تصوراً ذهنياً لما ينبغي أن تكون عليه الحياة))[74] ؛ لذا كان السقف الثقافي لحياتهم آنذاك قائم على سنن الانتماء لإنساق ورّثها الآباء والأجداد وأفراد الأمة عامة وتلك السنّة هي عمدة الاحتفاظ بالقوميّة , ومن ثُم فـــ((الاستنان بسنة الوثنية بالحقيقة من آثار المودّات الاجتماعية التي يرى العامة ذلك بعضهم من بعض فتبعثه المودّة على تقليده والاستنان به مثله ثم هذا الاستنان نفسه يحفظ المودّة القوميّة ويقيم الاتّحاد والاتفاق على ساقه))[75] , ومن هنا كانت هذه الأوثان تمثّل للقبيلة قطب الرحى في هذه الحياة والبعد الأعمق في الوجدان الفردي الذي يُؤسس لهم له شرعية أخلاقية وثقافية في ضمن شروط البيئة والتاريخ .

بينما يركن الرازي تفسيره لسياق حال المودّة في قوله : (إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ ... مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) وجها آخر , أي مودّة بين الأوثان وعبدتها , من خلال البعد التركيبي للإنسان ورصده في ضوء علاقته بسمات العالم الباطني للكينونة الإنسانية, وهذا التحليل ينبثق من تحقيق دقيق لمناسبة الدلالة بالخطاب وسياقه , انطلاقا من الاعتقاد من الإنسان يتوجه بـــــ

(جسم و عقل) أي (من - وإلى) فأمر المودّة عنده يأتي من تأثير القوة حيث تغلب القوة الدافع (الجسم) على قوة الماسك (العقل) عند الإنسان ؛ كون لـــــ((جسمه لذّات جسمانيّة ولعقله لذات عقلية , ثُم إنّ من غلبت فيه الجسميّة لا يلتفت إلى اللذّات العقليّة , ومن غلبت عليه اللذّات العقليّة لا يلتفت إلى اللذّات الجسميّة , كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من ماء أو أكل و شرب وهو بين قوم أكابر في مجمع يحصل ما فيه لذّة جسمه من الأكل وراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذات العقلية من حسن السيرة وحمد الوصاف ...))[76]

(4) سورة الروم : 21 .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

قوله :(خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا), حمل معنى النفس هنا على الجنس والشكلية المماثلة له ؛ لما يوليه الائتلاف بين الاثنين من جنس من اعتبارات الإلف والسكون, عما هو عليه التنافر للسكن بين الجنسين المختلفين[77] , إذ خلق الجنس الأنثوي الذي تمثّل بحواء من ضلع آدم (عليه السلام) , وتوالى هذا الجنس خلقه من نطف الرجل وصلبه , فـــ (من أنفسكم) أيّ من نوعكم وجنسكم لا من جنس آخر[78] , لذا كان هذا الجمع في الخلق وجنسه مدعاة لوجوب السكن , الذي يعطي الاستئناس وفرح النفس ؛لأنّ فيه زوال اضطراب الوحشة والكمد[79] وهنا تأتي المودّة والرحمة لتعلق بعالم هذا السكون , ويرجع الرازي تقديم المودّة على الرحمة , إلى أنّ الأولوية للمودّة التي تفضي إلى الرحمة , فإنّ الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس [80] ,

ويرجحها الطباطبائي إلى نوع من التأثر النفسي الباعث لحسن المعاملة ((من مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال وحاجته إلى رفع نقيصته يدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان ورفع نقصه))[81].

ولعلّ مقام المودّة مما سبق في آية العنكبوت مناط بعمومية في شأن المخاطبة , ليس عما هو عليه في سياق المودّة هنا , إذ نلتمس مقاماً أسمى في تبوأ سياقها يحدو بنا في رحابة الذات الإنسانية , فالماهية التي تظهر عليها الكائن البشريّ لمرحلة ما بعد خلقه , ماهية اجتماعية - إنّ الإنسان اجتماعيّ بطبعه -, من هنا نجد أنّ محور النصّ الكريم يسوّره مرام اجتماعيّ بحت, والباعث لهذا السلّم الاجتماعي مكوناً " المحبّة , والمودّة " فهما ((في الحقيقية ملاط البناء في المجتمع الإنساني , لأنّ المجتمع يتكوّن من أفراد متفرقين كما أنّ البناء العظيم يتألف من عدد من الطابوق أو الأحجار, فلو أنّ هؤلاء الأفراد المتفرقين اجتمعوا, أو أنّ تلك الأجزاء المتناثرة وصلت بعضها ببعض , لنشأ من ذلك البناء أو المجتمع حينئذٍ))[82] .

حيث استحضرت دالة المودّة في مقام سورة الروم مناط ينصب تحت التذكير الله عزّ وجل العباد بالنعم, فحضور المودّة يطرح نفسه بوصفه خصوصية، على الإنسان خاصة والمجتمع عامة في صيرورته التي يحافظ عليها وذلك تحول دلالي من حيث انتقال الخطاب من (الله –إلى – الخلق) , كما أنّ توجيه التعبير بالصيغة الجمعية (بينكم) , لعامة الناس توجيه يعتريه إبراز خصوصية, ولعلّ مصداقها الزوجان ؛ بوصف كينونة العائلة لا تستقيم إلاّ بهذين الأصلين المودّة والمحبّة , وما يترتب على ذلك من بقاء النوع الإنساني والاستكمال لحياته الدّنيويّة و الأخرويّة[83] فالآية ((كائنة بخلق جوهر الصنفين من الإنسان : صنف الذكر , وصنف الأنثى , وإيداع نظام الإقبال بينهما ... وذلك من الذاتيات النسبية بين الصنفين))[84] , وبهذا تعدّ المحبّة والمودّة صنوين يلازم أحدهما الآخر من جهة ويكلمه من الجهة الأخرى .

كما استرفد سياق المودّة في قوله (وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) شأن المعاني الدلاليّة التي وقف عندها المفسرون , وبذلك تجاذب إليها أكثر من محط تفسيريّ, فقد حدّت المودّة بالزواج والرحمة بالنسل أيّ الولد[85] , كما قال ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا﴾[86], كما حدّت بالكناية عن العاطفة من باب عطف القلوب بعضها على بعض [87] , وقيل: المودّة هي المحبّة والرحمة تعني الشفقة[88] , وقيل :((مودّة للشابة ورحمة للصغير , وقيل : هما اشتباك الرحم))[89] .

(5) سورة الشـــــورى : 23.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾

المودّة قبل كل شيء ممارسة فعليّة تجري في مناص بيئات النسق الاجتماعي الذي يحتضنها, فيمتد رحابها هنا إلى شأن موكول بالقدسيّة , ومن المعروف أن هذه الآية كانت ولا تزال محط اختلافات تفسيرية في ترجيح المودّة على نحو عامة قريش أو خاصتها,فالأجواء الحافة بالآية أجواء تخصيصيّة ,وتنزيه مودّة أهل البيت عليهم السلام عن سائر القرابة , كما أنّ لمقتضى الظاهر من القول إنّ المودّة ليست أجراً [90] ؛ بكون الأنبياء عليهم السلام كما هو المبيّن قد قال هذا , وكذا قالت الأنبياء (صلى الله عليهم)قبله (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[91] ,هم لا يسألون أجراً على تبليغ الرسالة السماوية[92] , ولعلّ ما ذكر من الأجر في المودّة من التذكير ,

أي أذكركم في القربى[93] فقد يرجع المكوّن الدلاليّ لمرجعيّة المودّة إلى ما بعد واجب الحصول, فـــــ((حصول المودّة بين المسلمين أمر واجب , وإذا كان حصول المودّة بين المسلمين واجباً فحصولها في أحق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى , وقوله تعالى : (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ) وتقديره المودّة في القربى ليست أجراً))[94],من هنا حمل الاستثناء في قوله (إِلَّا الْمَوَدَّةَ) على قولين :

الأول : - منهما استثناء منقطع وهو محمول على هو عليه نظام الإسلام وشريعته من حاصل المودّة وليس على ظاهر الأجر للنبوّة .

والثاني :- استثناء متصل وعليه يكون مدلول المودّة أيّ لا أسألكم عليه أجراً إلاّ هذا[95] , يرجّح بعض المفسّرين نفع الأجر في المودّة إلى مردّ معنويّ لا يعود بشيء للنبي (صلى الله عليه وآله) ,وإنّما حاصل ذلك المردود إلى المؤمنين أنفسهم , فبه يتكامل إيمانهم وهدايتهم [96] .

وما ورد في قوله : (في القربى) مؤدلج بالمجازية(*) في إطار مكانيّ , بحيث تكون القربى موطناً للوّد وظرفاً له , وقد ذكر الزمخشري قلت :((جعلوا مكاناً للمودّة ومقراً لها , كقولك : لي في آل فلان مودّة , ولي فيهم هوى وحبّ شديد, تريد : أحبهم وهم مكان حبي ومحله))[97], وبهذا يكون ذلك المحل من المودّة ركناً للثبوت والتمكّن فيه .

فالمراد في (المودّة في القربى) أدرج معظم المفسرين, في محل الودّ لعترة الرسول آل بيته صلوات الله عليهم , فقد نقل الزمخشري رواية ذلك ((روي لما نزلت قيل : يا رسول الله , من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم ؟ قال : علي وفاطمة وابناهما))[98] , مما يجعل دلالة فهم الخطاب مرتبطة بدالة الاستعمال التعبيري على أن((المستعمل في الآية هو المودّة دون التودد فالمراد بالمودّة حبّهم لله في التقرب إليه ولم يرد في كلام الله تعالى إطلاق المودّة على حبّ العباد لله سبحانه وتعالى وان ورد العكس كما في قوله ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[99] , وقوله ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[100] , ولعل ذلك لما في لفظ المودّة من الإشعار بمراعاة حال المودود وتعاهده وتفقده))[101] .

(6) سورة الممتحنـــــة : 1 .

قوله تعالى:﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾

قوله تعالى:﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ الآية : 1 . (عدوي - العدو) صيغة يستوي فيها الواحد والكثير والدّال منها هنا الكثرة بقرينة " أولياء" , و" إليهم" وهم المشركين بمكة [102] .

ومن نافل القول إنّ لفظ (المودّة) قد ورد ذكره في سياقات سورة الممتحنة (ثلاث مرات) , ولعلّ سرّ ذلك مردّه ((لما ذكر في الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً ثُم موالاة الذين نافقوا الكفار من أهل الكتاب , افتتح هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتّخاذ الكفار أولياء , لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك , وكرر ذلك وبسطه إلى أن ختم به , فكانت في آية الاتصال , ولذلك فصل بها بين الحشر والصف مع تأخيهما في افتتاح بـــ سَبَّحَ))[103] .

إنّ ثنائية سياق الوّد في ذكره هنا ينبني بعضه على بعض في مقتضى صورته ,فقوله : (تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) لعلّه كما جوّزه ابن عاشور محمول على الاستئناف البيانيّ لجملة " تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ "فإن((الإسرار إليهم بالمودّة مما اشتمل عليه الإلقاء إليهم بالمودّة. والخبر مستعمل في التوبيخ والتعجب , فالتوبيخ مستفاد من إيقاع الخبر عقب النهي المتقدم , والعجب مستفاد من تعقيبه بجملة " وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ" , أيّ كيف تظنون أن إسراركم إليهم يخفى علينا ولا نطلع عليه رسولنا))[104] , ومن العدول التعبيري استعمال الفعل (أخفيتم) في التعبير بدلاً من (أسررتم) وعلله الرازي ,من المبالغة في التأكيد ؛لأن فيه من المبالغة ما ليس في ذلك فكان الإخفاء أبلغ من الإسرار ؛ بوصفه مرحلة أعمق من السرّ[105], ومن ثُمَّ يتحدد فعل الودّ هنا على مناط الإلقاء والإسرار , فالإلقاء هو عبارة ((عن إيصال المودّة الإفضاء بها إليهم , أيّ تلقون ليهم أخبار رسول الله بسبب المودّة التي بينكم وبينهم))[106] , من الطبيعي أنْ يكون فعل السراء أكثر قوة في بناء الود بيهم فـــــ ((أسررت إليه حديثاً أي فضيت إليه في خفية))[107] هذا ما يعطيه دالة سياق قوله تعالى من الآية التي بعدها ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ إشارة إلى أنّ فعل المودّة بينهم من الموالاة وإسرار الأخبار المودة بإليهم من الموالاة [108], فالإتيان بالفعلية بـــــ(تسرون) لـــــ((تصوير حالة الإسرار إليه تفظيعاً لها))[109] , وكأن فعل المودّة إليهم في موضع يستفهم عنه ,إذ أنهم ((يخالفونكم في العقيدة , كما أنّهم شنّوا عليكم الحرب عمليّاً , ويعتبرون إيمانكم بالله – الذي هو أكبر فخر لكم ,وأعظم قدسيّة تجلّلكم – غاية الجرم , وأعظم الذنب ,ولهذا السبب قاموا بإخراجكم من دياركم وشتّتوكم من بلادكم , هل من المناسب إظهار المودّة لهم ...؟))[110] , من هنا فحقيقة الفعليّة للإلقاء استعيرت لتدل على وقوع الشيء في غير محل وقوعه , أيّ تصرفون إليهم مودّتكم من غير تأمل[111], وفي الوقت نفسه يحمل الإلقاء غاية الثقل أيّ ((وقوع الشيء الثقيل من علو " إليهم" على بعدهم منكم حباً))[112] .

(7) سورة الممتحنة :7 .

قوله تعالى:﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ .

مما لا شك فيه أنّ القرآن الكريم جاء بلسان العرب , فقد أنزل على نسق الكلام العربي ليكون ((دليلاً على صدق النبي ومتضمناً رسالته والله تعالى أراد أنْ يكون القرآن في أعلى درجات الفصاحة

ليكون علماً دالاً على صدق النبي " عليه السلام" وعلم بذلك أنّ ذلك لا يتم بالحقائق المجرّدة وأنّه لابدّ من سلوك طريق التجوز والاستعارة ,فسلك تلك الطريقة ليكون أشبه بطريقة العرب وأدخل في الإعجاز))[113] وهنا نجد أن الآية المباركة افتتحت خطابها بخطاب جارٍ على وفق منطوق العرب , فهو وعد ((من الله على عادات الملوك يقولون في بعض الحوائج : عسى أو لعلّ فلا تبقى شبه للمحتاج في تمام ذلك))[114] , فقوله (الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً) قيل إنه أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بعداوة الكفار , عادوا آبائهم وأبنائهم وجميع قرابتهم وبالبراءة منهم , فنزل (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً)[115] , افتتح الخطاب بـــ (عسى) , وهي فعل للمقاربة واستعمالها هنا في الوعد مجردة عن الرجاء[116] , وعسى من الله تعالى واجبة الوقوع [117], وفعل المعاداة لكفار مكة ومراد بها القرابة , و(المودّة) هي من التوافق أي يوافقوكم الدخول للدين الحنيف [118] ,وتحصيل تلك المودّة بينكم وبينهم مشروط بالرجاء المحفوف بالطمع من الله أن يفعل ذلك [119], وقد حقق الكريم وعده حين ((أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحاب والتصافي ما تم))[120] .

نتائج البحث

بعد هذه الدراسة التي استقرأنا فيها لفظ (المحبّة والمودّة)، لابدّ لنا من وقفة نجمل فيها النتائج التي استقطبها البحث وتتلخص في ما يأتي:

مهمة اطلاق المحبّة والمودّة الأولى التفضيل في أصل الوصف المشترك ، لكنه أحياناً يرد قصر الصفة على الموصوف دون النظر إلى مقابله.

كما بيّن البحث أن الاختصاص إليه (بالمودّة) يُحمّل المودّة طاقات دلاليّة لم تكن تنسب إليه عند المحبّة المكان الطبيعي –المعياري – للفظة .وإن كانت (المودّة والمحبّة) بحسب الظاهر قريبتان في المعنى , إلاّ الخصيصة المميّزة التي تفترق المحبّة من المودّة , دلالة المودّة على الاشتراك والزيادة أقوى من مجرد الوصف بالمحبّة حيث أن المودة التطبيق الفعلي لفعل المحبّ , ذلك أنّ المحبّة معنى قلبي تطلق - نقيضاً للبغض بمعنى أنّ المودّة أخص من المحبّة .

- أوضحت الدراسة أن تعدد جوانب المفاضلة بين اللفظتين .
- إنّ من المحبّة ما يكون من الله تعالى أيّ المحبّ هو الله تعالى ، فدلّ على كمال ذلك الحبّ وقدسيته كما في آية طه .
- من دلالة المودّة ما قد يقترن لمعاني (الترغيب والترهيب) أو (التهديد والتعجب) .
- من استعمال المودّة بيان العلاقات الاجتماعية ، العامة والخاصة .
- اشتمل القرآن الكريم على لفظ (المحبّة والمودّة) بدلالاتهما المتعددة ، وبصيغة (الإفراد والتأنيث) وفي سياقات متعدة مثل الجمع والتثنية ,كما ضم كلّ منهما إلى المعرفة والنكرة والإقتران بـــ (من) ,أو بـــ(الباء) أو (بين) , أو بـــ(إلاّ) , و(أل) أو مجرداً وكلّ ذلك مما يدل على سعة واهتمام .
-

الهوامش

1( ) ينظر : الإعجاز البياني للقرآن , د. عائشة عبد الرحمن : 34.

2( ) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن , : 27 .

3( ) سورة الإسراء : 88 .
4( ) إعجاز القرآن , الباقلاني: 394 – 395.
5( ) التعبير القرآني , د. فاضل صالح السامرائي : 11 .
6( ) ينظر : سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي :55.
7( ) صفاء الكلمة , د. عبد الفتاح لاشين : 15 .
8( ) ينظر : مقاييس اللغة , ابن فارس : 2\62 .
9( ) مفردات ألفاظ القرآن , الراغب الاصفهاني : 214 .
10( ) القاموس المحيط : 52/1 .
11( ) ينظر : المصدر نفسه , والصفحة نفسها .
12( ) روضة التعريف بالحب الشريف , لسان الدين ابن الخطيب : 334.
13( ) ينظر : لسان العرب , ابن منظور , مادة (حبب): 2\55 .
14( ) ينظر : معجم مقاييس اللغة: 2\26 , وأيضا ينظر : لسان العرب, مادة (حبب)2\56.
15( ) ينظر : معجم مقاييس اللغة : 26 , و ينظر لسان العرب : مادة (حبب),.
16( ) ينظر : المعجم الوسيط , مجمع اللغة العربية : مادة (تحابُّوا) : 312.
17( ) العين , الفراهيدي : 31/3 .
18( ) ينظر لسان العرب : مادة (حبب) : 2\57.
19( ) ينظر : الصحاح : مادة (حبب) : 2\99 , لسان العرب , مادة (حبب): 2\55.
20( ) المصباح المنير , الفيومي : 45 .
21( ) ينظر : الفروق اللغوية , أبو هلال العسكري : 88-89.
22() ينظر : المصدر نفسه : 88 .
23() ينظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج: 335/1 .
24() بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز , الفيروزآبادي : 420/2 .
25( ) المعجم الوسيط , مادة(حَبَّبَ) .
26( ) ينظر : الحب , عمر كحالة : 8 .
27( ) روضة التعريف بالحب الشريف : 280.
28( ) أساليب العطف في القرآن الكريم : 2 .
29( ) سورة الحجرات : 13 .
30( ) روضة التعريف بالحب الشريف : 366 .
31( ) بصائر ذوي التمييز : 416/2 .
32( ) ينظر : شرح الكافية الشافية : 1\44
(33) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : 88/3 وجامع البيان عن تأويل آي القرآن : الطبري : 251/12 .
34( ) مثل ورودها بصيغ (الْحَبِّ , حُبًّا , كَحُبِّ , يُحِبُّونَهُمْ , حُبِّهِ , تُحِبُّونَهَا , تُحِبُّوا , تُحِبُّونَ , يُحْبِبْكُمُ , يُحِبُّونَكُمْ , تُحِبُّونَهُمْ ...)
35( ) الكشاف : 4\82 .
36( ) البحر المحيط : 6\227 .
37( ) ينظر : مجمع البيان , الطبرسي : 7\17 .

38( ) ينظر : البحر المحيط : 6\227 .
39( ) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : 9\ 556 .

40( ) سورة : القصص : 9 . .
41( ) سورة القصص : 9 .
42( ) التحرير والتنوير : 16\ 217 .
43( ) الفروق اللغوية : 89 .
44( ) ينظر : معجم مقاييس اللغة : 6 \75 .
45( ) المصباح المنير , مادة (ودد) : 250 .
46( ) مفردات ألفاظ القرآن ,مادة (ودد) : 860 .
47( ) سورة الروم : 21.
48( ) ينظر : المصدر نفسه , والصفحة نفسها .
49( ) لسان العرب , مادة (ودد) .
50( ) ينظر 320.
51( ) سورة الممتحنة : 1.
52( ) ينظر : 320.
53( ) الحب , عمر كحالة : 110
54( ) ينظر : الأمثل في تفسير كتاب المنزل : 3\320 .
55( ) ينظر : المصدر نفسه : 3\221 .
56( ) ينظر : تفسير التحرير والتنوير :5 \ 120 .
57( ) ينظر : الكشف عن وجوه القراءات :1 \392 .
58( ) ينظر : مفاتيح الغيب : 10\143 -144 .
59( ) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : 8\107 - 108 .
60( ) البحر المحيط : 4\6 .
61( ) مفاتيح الغيب : 12\79 .
62( ) ينظر : تفسير الميزان : 6 \79 .
63( ) ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها .
64( ) ينظر : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: 4\128 .
65( ) الكشاف : 2\280 .
66( ) الكشاف , الزمخشري :4 \454 .
67( ) ينظر : تفسير البحر المحيط , ابي حيان الأندلسي : 7\ 144 .
68( ) ينظر : التحرير والتنوير, ابن عاشور: 20\236.
69( ) ينظر : المصدر نفسه , والصفحة نفسها .
70( ) الفوائد , ابن قيم الجوزية : 103 .
71( ) التحرير والتنوير : 20\235.
72( ) المصدر نفسه والصفحة نفسها .
73( ) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل , الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : 12\367 .
74( ) لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة , د. عبد الفتاح احمد يوسف : 141.
75( ) تفسير الميزان , الطباطبائي : 16\124 .
76( ) مفاتيح الغيب, الفخر الرازي : 25\55 .
77( ) ينظر : الكشاف , الزمخشري :4 \571.
78( ) ينظر : معاني القرآن وإعرابه , للزجاج : 4\182, الجامع لأحكام القرآن , القرطبي :16 \412, الكشاف :4 \571, مفاتيح الغيب : 25\111.

79( ) ينظر :تفسير التحرير والتنوير : 21\71 .
80( ) ينظر : مفاتيح الغيب : 25\112.
81( ) الميزان : 16\71 .
82( ) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : 12\496
83( ) ينظر : الميزان : 6 \171, وينظر : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل :12\496.
84( ) التحرير والتنوير ,: 21\71.
85( ) ينظر : الكشاف, الزمخشري : 4\571. .
86( ) سورة ص : 43.
87( ) ينظر : معاني القرآن , للنحاس : 5\253.
88( ) ينظر : مجمع البيان , الطبرسي : 19\21 .
89( ) تفسير البحر المحيط : 7\162.
90( ) ينظر : تفسير البحر المحيط : 7\497. .
91( ) سورة يونس : 73.
92( ) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : 4\398, و : الجامع لأحكام القرآن : 18\469 .
93( ) ينظر : مفاتيح الغيب : 27\166, معاني القرآن وإعرابه : 4\498.
94( ) مفاتيح الغيب : 27\166 .
95( ) ينظر : مجمع البيان : 9 \38, وينظر : التحرير والتنوير : 25\84 .
96( ) ينظر : الأمثل في تفسير كتاب المنزل : 15\518 , ينظر : الميزان : 18\47 .
(*) وذكر ابن عاشور إن محل الظرفية المجازية هو التعليل , وهو معنى كثير العروض لحرف " في " كقوله تعالى : ((وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ)) , سورة الحج : آية : 87 , ينظر : التحرير والتنوير : 5\82 .
97( ) الكشاف : 5\404 .
98( ) المصدر نفسه , والصفحة نفسها , وينظر : الميزان : 15\47 .
.\342
99( ) تفسير الميزان : 19\ 236-237.
99( ) ينظر : المصدر نفسه : 19\237 .
99( ) التحرير والتنوير : 28\138 .
99( ) الأمثل في تفسير كتاب المنزل : 12 \234 .
99( ) ينظر : التحرير والتنوير : 28\134 .
99( ) نظم الدرر : 19\ 486.
99( ) شرح الأصول الخمسة : 600.
99( ) الكشاف : 6\93 .

بعض المفسرين حمل المودة هنا شارةً إلى زواج الرسول الأكرم(صلى الله عليه و آله) من أم حبيبة بنت أبي سفيان التي كانت قد أسلمت وصحبت زوجها عبيد الله بن جحش في هجرته للحبشة مع المهاجرين ومات هناك , فأرسل الرسول(صلى الله عليه و آله) شخصاً إلى النجاشي وتزوّجها , لأن الزواج في القبائل العربية كان له تأثير في تضيق دائرة العداء وبناء جسور المودّة بينهم . ينظر : الجامع لأحكام القرآن : 20\406 , روح المعاني28\74 .

وقد أخطا أبي حيان الأندلسي حمل المودة على تزوج الرسول من أم حبيبة ؛ بكون تزويجها كان وقت هجرة الحبشة ,وهذه الآيات كانت سنة ستة للهجرة . ينظر : البحر المحيط : 8 \253 .
كما استبعد ناصر مكارم الشيرازي احتمال ذلك لأن هذه الآيات نزلت عندما كان المسلمين على أبواب فتح مكة. ينظر :الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : 18 \249..

99( ) ينظر : مفاتيح الغيب : 29\303 .
99( ) ينظر : التحرير والتنوير : 28 \151.
99( ) ينظر : البحر المحيط : 8\253
99( ) ينظر : تفسير أبي السعود : 5 \316.
99( ) ينظر مجمع البيان : 9\345.
99( ) تفسير أبي السعود : 5\316 .
99( ) سورة هود : آية : 90 .
100( ) سورة البروج : آية : 14.
101( ) الميزان : 18 \46.
102( ) ينظر : الميزان 19\235-236 .
103( ) أسرار ترتيب القرآن , السيوطي : 140 .
104( ) التحرير والتنوير : 28 \138.
105( ) ينظر : مفاتيح الغيب : 29\300 .
106( ) الكشاف : 9\90 , وينظر : تفسير أبي السعود 15\313, وينظر : مجمع البيان : 9 \342\.
107( ) تفسير الميزان : 19\ 236-237.
108( ) ينظر : المصدر نفسه : 19\237 .
109( ) التحرير والتنوير : 28\138 .
110( ) الأمثل في تفسير كتاب المنزل : 12 \234 .
111( ) ينظر : التحرير والتنوير : 28\134 .
112( ) نظم الدرر : 19\ 486.
113( ) شرح الأصول الخمسة : 600.
114( ) الكشاف : 6\93 .

بعض المفسرين حمل المودة هنا شارةً إلى زواج الرسول الأكرم(صلى الله عليه و آله) من أم حبيبة بنت أبي سفيان التي كانت قد أسلمت وصحبت زوجها عبيد الله بن جحش في هجرته للحبشة مع المهاجرين ومات هناك , فأرسل الرسول(صلى الله عليه و آله) شخصاً إلى النجاشي وتزوّجها , لأن الزواج في القبائل العربية كان له تأثير في تضيق دائرة العداء وبناء جسور المودّة بينهم . ينظر : الجامع لأحكام القرآن : 20\406 , روح المعاني28\74 .
وقد أخطا أبي حيان الأندلسي حمل المودة على تزوج الرسول من أم حبيبة ؛ بكون تزويجها كان وقت هجرة الحبشة ,وهذه الآيات كانت سنة ستة للهجرة . ينظر : البحر المحيط : 8 \253 .
كما استبعد ناصر مكارم الشيرازي احتمال ذلك لأن هذه الآيات نزلت عندما كان المسلمين على أبواب فتح مكة. ينظر :الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : 18 \249..

115( ) ينظر : مفاتيح الغيب : 29\303 .
116( ) ينظر : التحرير والتنوير : 28 \151.

117( ) ينظر : البحر المحيط : 8\253
118( ) ينظر : تفسير أبي السعود : 5 \316.
119( ) ينظر مجمع البيان : 9\345.
120( ) تفسير أبي السعود : 5\316 .

المصـــــــــــــادر والمراجـــــــــــع

- القرآن الكريم

1. ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم المعروف بـ (تفسير ابي السعود) ,أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت: 982هـ) , تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، مطبعة السعادة , مكتبة الرياض الحديثة , الرياض,(د ــ ت).

2. أسرار ترتيب القرآن : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:911 هــ) , تحقيق : عبد القادر أحمد عطا دار الفضيلة , القاهرة, (ب ــ ط) (ب ــ ت)

3. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الازرق ,عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) (ت : 1418هـ) ، دار المعارف ، مصر ، 1971 .

4. إعجاز القرآن , أبو بكر مُحمَّد بن الطيب الباقلانيّ , دار المعارف , مصر , 1971, (د ــ ب) .

5. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل , العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي , مطبعة أمير المؤمنين (ع) , ايران \قم , ط1 , 1421هـــ .

6. بدائع الفوائد, أبو عبد الله مُحمَّد بن أَبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية (ت :751هـ) ، تحقيق : ادارة المطبعة المنيرية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، (د ــ ت).

7. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز, محمد بن يعقوب الفيروز ابادي (ت: 817هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، القاهرة ، 1964 .

8. بلاغة العطف في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية ,الدكتور عفت الشرقاوي, دار النهضة العربية , بيروت لبنان، 1981.

9. التعبير القرآني , الدكتور فاضل السامرائي, دار عمار, عمان , ط5 , 2007.

10. تفسير البحر المحيط , محمد بن يوسف الشهير بـــ(أبي حيان الأندلسي) (ت :745هـــ), دراسة وتحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود , والشيخ علي محمد معرض , دار الكتب العلمية , بيروت\ لبنان , ط1 , 1993.

11. تفسير التحرير والتنوير , محمد الطاهر بن عاشور , الدار التونسية للنشر , تونس , 1984 .

12. التفسير الكبير المسمى (مفاتيح الغيب) ,أبو عبد الله بن محمد بن عمر بن الحسين بن علي التميمي الرازي (ت: 606هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر, بيروت ، ط1 , 1981

13.ثلاث رسائل في إعجاز القرآن , الرماني - الخطابي - الجرجاني , تحقيق : محمد خلف الله - محمد زغلول سلام, دار المعارف, مصر , ط 3, 1976.

14.الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) , عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت: 671هـــ) , تحقيق : عبد الله عبد المحسن التركي , مؤسسة الرسالة , بيروت \البنان , ط 1 2006, .

15.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني , أبو الفضل شهاب الدين محمود الالوسي البغدادي (ت: 1270هـ) ، دار الطباعة المنيرية ، مصر ، (د.ت) .

16.سرّ الفصاحة , عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت: 466 هـــ) , دار الكتب العلمية, بيروت ط 1, 1982 .

17.شرح الأصول الخمسة , القاضي عبد الجبار (ت: 415 هـــ) حقّقه وقدّم له الدكتور عبد الكريم عثمان , مكتبة وهبه, القاهرة , ط 1, 1996.

18. شرح الكافية الشافية , جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجياني, تحقيق : عبد المنعم هريدي , دار المأمون للتراث, مكة المكرّمة, ط 1, 1982.

19.الصحاح ، تاج اللّغة وصحاح العربية : إسماعيل بن حماد الجوهري (ت: 393هـ) ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 4, 1987.

20.كتاب السبعة في القراءات , أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي (ت: 342هـــ) ، تحقيق : شوقي ضيف ، مطابع دار المعارف ، مصر ، 1972 .

21.كتاب العين , الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 175هـ) ، تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1980 .

22. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل , العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538 هـــ) , دراسة وتحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود , والشيخ علي محمد معرض. مكتبة العبيكان, الرياض , ط1 , 1998.

23.لسان العرب , ابن منظور(ت: 711هـــ) , دار صادر , بيروت , ط1 , 2011 .

24. مجمع البيان في تفسير القرآن , تأليف الفضل بن الحسن الطبرسي, دار المرتضى , بيروت \ لبنان,ط1 , 2006 .

25.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير, أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري , تحقيق : عبد العظيم الشناوي , دار المعارف ,ط2 , القاهرة ,(د ــ ت) .

26.معاني القرآن وإعرابه , أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت: 311هـ) , شرح وتحقيق : عبد الجليل عبده شلبي, عالم الكتب , الأردن , ط1 , 1988 .

27. المعجم الوسيط, مجمع اللغة العربية , ط4 , مكتبة الشروق الدولية , 2004 .

28.معجم مقاييس اللغة ,أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: 395هـ) ، تحقيق : عبد السلام هارون, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة , 1979 .

29.مفردات ألفاظ القرآن , الراغب الاصفهاني(ت : 502 هـ) , تحقيق : صفوان عدنان داوودي, دار القلم -دار الشامية , ط4 , دمشق, 2009 .

30.من أسرار التعبير القرآني – صفاء الكلمة , الدكتور عبد الفتاح لاشين , مطبعة دار المريخ للنشر , الرياض – السعودية , 1983 .

31.الميزان في تفسير القرآن , السيد محمد حسين الطباطبائي, منشورات الأعلمي للمطبوعات , بيروت \البنان ,ط1, 1997 .